آنى بيزانت ANNIE BESANT

ومذهب الثيوصوفية الحديثة

توفيت السيدة « آنى بيزانت » فى أواخر الشهر الماضى ؛ ولما كانت تعتبر بحق زعيمة الثيوصوفية الحديثة، وباعثة الفلسفة المشرقية فى أوربا. فقد أردنا أن نقدم بين يدى القراء مقالا عنها نلم فيه بتاريخ حياتها ، وتطورات مذهبها، راجعين إلى أوثق المصادر عنها ، ومنها مذكرات خاصة بنا ، يعلم القارىء منها كثيراً من أسرار هذه السيدة وخفايا مذهبها ؛ حصلنا عليها من مكاتبات خاصة بيننا وبين أحد أتباعها فى لندن منذ ست سنوات ، راجين أن يعلم القارىء أنا لا نوافق أصحاب هذا المذهب على مذهبهم ، لا تلميحاً ولا تصريحاً ، لأن الثيوصوفية — فى نظرنا — مذهب خاطىء ، لا يقوم على أسس علمية صحيحة ، ولا عقائد دينية سليمة ؛ وقد أدخلنا هذا المذهب ضمن المذاهب الحديثة الخاطئة ، فقلنا فى أول جزء من أجزاء « المعرفة » مايو سنة ١٩٣١ ص ٤ مانصه : « ..... وستكون « المعرفة » معولا هداما لبناء المذاهب المادية الإلحادية ، ومبضعاً دقيقاً لبتر الفاسد من مذهبى الثيوصوفية واستحضار الأرواح وغيرهما من المذاهب المنتشرة فى أوربا وأمريكا ».

وإنا لنذكر بصدد هذا أن الأستاذ الفيلسوف « René Guenon » وضع كتاباً بالفرنسية عنوانه « Le Théosophisme » فند فيه دعاوى هذا المذهب تفنيداً لا يدع لمستريب شكاً، فليقرأه من شاء.

ولما كانت مهمتنا فى هذا المقال — خاصة — التأريخ البعيد عن الهوى والتعصب ؛ فقد اكتفينا بسرد تاريخ حياتها الآن ، على أن نناقش مذهبها فى بحث آخر .

***

فى اليوم الأول من أكتوبر لسنة ١٨٤٧ ميلادية، ولدت الطفلة « آنى » صاحبة الترجمة، فاستقبلها أهل لندن بغير كثير اهتمام ، أو شديد عناية، كما استقبلها أبوها « وليم بيج وود » William page Wood ، ولا تقول أمها ، شأنها فى ذلك شأن كل المخلوقات التى لا يعرف أحد غير الله من أمر مستقبلها شيئاً .

وإنا لنتخيل حال هذه الصبية — بعد إذ حبت ونمت ودرجت حتى قطعت مرحلة المراهقة — فى شبه غيبوبة ويقظة معاً. واستسلام وشك معاً. وإيمان وحيرة فى آن واحد . إيمان بالله والمستقبل، وحيرة من شأن هذا العالم الذى هبطت إليه ؛ خصوصاً بعد محنتها الأولى بفقد والدها الذى أسلمها إلى أمها — وهى فى سن الخامسة من عمرها — عندما أسلم روحه فى عام ١٨٥٢ م.

والباحث فى مثل هذه الشئون لا يستطيع أن يترك هذا الدور دون أن يستقرأه ويستوحيه الكثير من أمر هذه الصبية التى خلفها والدها يتيمة إلا من أمها الأرلندية الأصل، والتى تمت إلى أسرة من أعرق الأسر حسباً ونسباً، وأقدمها تاريخاً، وذكراً، وأبعدها نباهة صيت، وواسع شهرة.

نشأت الصبية فى حضن أمها – وهى على ما قدمنا من حسب ونسب – فتولتها بالتربية والتهذيب، وعنيت بأمر عقلها وجسمها أيما عناية ، ثم قامت لها مقام المعلم ، فأخذتها بدراسة اللغات الحديثة الحية ، وأخصها الانجليزية لغتها الأصلية ، فالفرنسية ثم الألمانية ؛ واضعة نصب عينيها فى الوقت نفسه ، تدريبها على العزف على الآلات الموسيقية ، وركوب الخيل ، والرياضة البدنية ، غير ناسية تعليمها دروساً فى الأدب القديم والحديث ، وفنوناً شتى من ألوانها كالشعر والنثر والحكم والأمثال ، وما يدخل فى هذه الضروب من قصص وسير وخلق واجتماع .

ويبدو لنا من قراءة سيرة أمها ، أنها كانت شديدة التقوى، كثيرة الزهد فى الحياة وألوانها الفتانة ، بعيدة عن التأثر بزخرفها الباطل وأمانيها الكاذبة، فأثرت هذه الروح فى ابنتها ذلك الأثر الذى سنراه عالقاً بحياتها فى جميع أدوارها ، رغم ما تقلبت عليه فى تلك الأدوار من إيمان وإلحاد، ويقين وشك ، واستسلام وجحود ، وتصديق وإنكار .

* * *

لسنا نشك مطلقاً فى أن المترجم لها ورثت عقيدتها هذه عن أمها وراثة لا أثر للتكلف أو التعمل فيها ، وإلا فبماذا نفسر عكوف أمها على تدريسها اللغات الحديثة ، والفنون الجميلة من أدب وموسيقى ، وعلوم حركية كالرياضة وركوب الخيل، دون أن تلقنها شيئاً من دينها وأسراره ، أو تبثها فكرة من أفكارها المذهبية ؟

قد يكون ذلك حدث فعلا ، بل لابد أن يحدث ؛ لكننا ننكر أن تكون الأم وجهت عناية خاصة إلى إرشاد ابنتها إلى دينها، أو تلقينها شيئاً من أسرار مذهبها، فلم يبق لدينا إلا أن المترجم لها ورثت دينها عن أبويها وراثة، فنشأت على ما نشأ عليه دون ما تفكير أو إعمال فكر ونظر .

يقول فيلسوف المعرة فى التدليل على صحة هذا الرأى القائل بالوراثة الدينية :

وينشأ ناشىء الفتيان منا ... على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجا ولكن ... يعلمه التدين أقربوه
وطفل الفارسى له ولاة ... بأفعال التمجس دربوه

فإذا كان فى ظن إنسان شىء يدفعه الى استنكار ذلك الرأى أو الاسترابة فيه ، فليذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يولد المرء على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه » .

ندع هذا لنعود إلى سيرة المترجم لها،فنرى أن « آنى »لما أشرفت على ربيع العقد الثالث من حياتها ، أو اختتمت عقدها الثانى بمعنى أدق ، أى فى عام ١٨٦٧ م ،تقدم إلى خطبتهـا القس «فرانك بيزانت Frank Besant [1]»،ولما كانت روحاهما ملتئمتين،أو لما كانت المسكينة تعتقد أن روحيهما متلائمتان بحكم ميلها إلى الحياة الدينية؛ بل إلى حياة الرهبنة ميـلا شديداً آخذ عليها مسارب الحس ؛ فقد أملت من هـذا الزواج خيراً كثيراً ،وراحت تتخيل سعادتها المقبلة فى الزيجة المستقبلة ،وتحلم بأطياف المنى والآمال ، منى الروح وآمال النفس ، ولـكن :

يقفون والفلك المحرك دائر ويقدرون فتضحك الأقدار

أجل ، فقدشاء القدر العاتى — ولاشأنى محكمه إلاالغافلون — أن يبدل نعيمها شقاء،وأحلامها آلاماً ، وحظها تعاسة ، وإيمانها كفراً ، ويقينها شكا ، واستسلامها تذمراً ، فرزقها طفلا وطفلة،كانا معاً ، أو كانت الثانية فى الغالب مبعث ذلك كله .

فقد مرضت الطفلة مرضاً شديداً أذهل عقل الأم ، واستنفد كل ما وهبتها الطبيعة من قوة البنية،وسلامة الجسم ، وشدة الشكيمة ، وقوة العارضة ،ففقدت أولئك جميعاً بسبب رعايتها ابنتها وقيامها بالسهر عليها طيلة مرضها كله .

بل فقدت أكثر من هذا كله ، فقـدت إيمانها الراسخ،وعقيدتهـا الثابتة ، فراحت تنكر الخير والحق والجمال ، وتجحد الدين والـكتب المنزلة؛ وتزعم أن لا خير ولا شر ، ولا رحمة ولا شفقة،وأن الله هو أصل الخير والشر ، فـكما يفعل الخير يفعل الشر ، ولا دخل للشيطان فى هذا مطلقاً ، ثم ذهبت إلى أبعد من هذا فى الجحود والإنكار والإرجاء والتعطيل ، آخذة من مذاهب الشك الفلسفى بجانب ،ومذاهب المعطلة المسلمين بجوانب.

وقد كانت فى محنتها هذه تسائل نفسها كثيراً،فتقول : ما ذنب هذه الطفلة الصغيرة وهى لما تبلغ سن الرشد ؟ وماذا فعلت حتى تستحق هذا العذاب كله ؟ وما معنى الخير والشر إذن ؟ وأين هى رحمتك ومحبتك يا إلهى ؟ .

ويأبى الشيطان إلا أن يضلها،ويفتح لها مسالك الشر والوسواس ، فتظل على تلك الحال فترة طويلة ،حتى يقودها أخيراً إلى إنكار الأديان جميعـاً، وجحد الـكتب السماوية دون ما تخصيص أو استثناء .

إلا أن الله — جلت قدرته — وهو الذى يبلو خلقه ليعلم أيهم أحسن عملا ، من عليها بالشفاء من مرضها ، لـكن ذلك لم يمنعها من السؤال تلو السؤال ،والبحث والتنقيب فى أصول العقائد وموازنتها بعضها ببعض .

---

1 The Rev -Frank Besant (d.1917)- See: The Encycloqaedia Britannica — Thirteenith Edition, New vols 1,P 366

وقد قالت فى تلك المحنة عبارة هامة يجب أن يفهمها كل والد ووالدة، وأن ينظرا إليها بيقظة وانتباه، تلك العبارة هى : « لو أن أمى علمتنى أن الله هو الذى يأتينا بالخير ، وأن الشيطان يأتينا بالشر ، لما زلت قدمى فى بئر الإلحاد ، ولا كبوت فى كبوة الشر »؛ ومن هذا يعلم القارىء أن أمها لم تعن بتربية ابنتها تربية دينية بقدر ما عنيت بتربيتها اجتماعياً بما فيه مايؤيد استنتاجنا السابق .

والغريب فى أمر هذه السيدة ، أنها على إنكارها أصول الديانات ، وأسس العقائد فى تلك الفترة ، فإنها لم تنكر وجود الإله ! ! حتى كان ذلك مثار دهشة جميع من ناقشتهم من رجالات الأديان، والتحمت بهم من علماء الفلسفة واللاهوت .

تترك الآن هذه المرأة المسكينة برهة لتعود إلى زوجها الذى كان يشفق عليها ويرثى لحالها، ويخلص لها بعض الإخلاص ، ولا نقول كله . وحجتنا على هذا الرأى ما رأيناه من نكوصه على عقبيه، ووقوفه مكتوف اليدين أمام قرار الحكومة الذى أصدرته فى سنة ١٨٧٣م قاضياً بتطليقه إياها وطردها من منزله ، فلم يلبث قليلا حتى طردها من منزله شر طردة خاوية الوفاض ، فلم تجد غير أمها تستعطفها وتسألها الرحمة والحنان .

ويظهر أن الفاقة كانت قد أخذت سبيلها إلى الأم ، فاضطرت « بيزانت » تحت تأثير العيش أن تعمل على كسب قوتها بيدها بنسخ الكتب والخدمة فى المستشفيات والقيام على تعهد الأطفال بالعناية والتربية والتمريض .

وكأن الله أراد أن يريح تلك الأم المسكينة — أم بيزانت — فتوفاها بعد حوار جدلى عنيف بينها وبين ابنتها ، كانت خاتمته التسليم لطقوس الكنيسة ، والانصياع لأوامر رجال الدين . ونذكر من هذا الحوار العلمى الفلسفى الطريف نبذاً منه ليكون القارىء فكرة عن المحيط الدينى لأوربا فى ذلك القرن .

قالت الأم وقد جاءها رسول الموت : وأصبحت منه قاب قوسين أو أدنى :

آتى لى برجل من رجال الدين ليرنى قبل أن أسلم الروح ويلقننى الأسرار القدسية ، والمساتير الربانية ، ولا تنس نصيبك معى فى تلقى تلك الأسرار ، علها تهديك إلى صراط مستقيم .

فقالت بيزانت : إننى ياأماه براء مما تقولين ، وكم كنت أود أن أطيعك فيما ترينه ، لولم أكن واثقة من بطلانه ، فضلاً عن أنى لا أعتقد بتلك الأسرار ، فإنى لا أصدق أن واحداً من رجال الدين يرتضى حضورى وسماعى تلك الأسرار ، بله إشراكى معك فى تلقيها . ثم هل ترينى ياأماه جديرة بالنفاق من أجل إصرارك على اشتراكى فى تلقى هذه الأسرار ؟ إننى لا أرى غير ما أعتقد ، ولا أعتقد غير ما أرى ، وما كنت يوما لأرتضى النفاق الدينى أو يرتضينى له، فدعى هذا ياأماه !

على أن الأم المريضة لم يؤثر فيها ذلك الحوار العنيف ، فأصرت على طلب القسيس ، ثم أصرت على إشراك ابنتها معها فى تلقى الأسرار ؛ وتحت تأثير الشفقة ، ثم تحت عامل الحب ، وتأثير البنوة ، رضيت « بيزانت » تحقيق رغبة الوالدة ، ومن ثم ذهبت إلى أحد كبار رجال الدين تستدعيه إلى ماذهبت إليه من أجله فرفض ، ثم ذهبت إلى ثان فرفض ، وأخيرا راحت إلى ثالث

فرفض ؛ وهنا تثور بيزانت ثورتها العنيفة على الدين من جديد ، بعد أن كانت قد هدأت قليلا فى فترة مرض أمها الأخير .

وجدير بنا أن ننبه هنا إلى أن ذلك الأثر السيء الذى يتركه رجال الدين الجامدون فى أذهان الشعب ، فى مثل تلك الحال ، يضر العقيدة ذاتها قبل أن يضرهم ، ويسيء إليهم قبل أن يسيء إلى غيرهم ؛ ثم هو آخر الأمر قاض على سلطانهم ، هادم تعصبهم ، داك بنيانهم .

ومحال على الدين — أيا كان نوعه — أن يدعو إلى التعصب والجمود المرذولين ، بل هو على العكس أوسع من باب الرحمة ، وأطلق من ساحة الغفران ؛ ليسع أبناءه أجمعين ؛ ثم هو يأخذ باللين مالا يؤخذ بالشدة .

وها هى ذى « بيزانت » التى نراها ثائرة جاحدة منكرة ، تعود إلى الإيمان واليقين فى فترة قصيرة ، بل أقل فى من فترة ، هى برهة مسرفة فى الصغر .

ولا دهشة أو عجب من ذلك ؛ فإن « بيزانت » بعد أن يئست ممن قابلتهم ، خطر لها أن تذهب إلى كبيرهم ، وكان رجلا واسع الحيلة ، وقاد الذهن ، موفور العقل ، فأخذها بالحلم واللين ، وسايرها بالعقل والمنطق ، والحكمة والموعظة ، حتى استل ما فى نفسها من سخائم على الدين ، ونزع ما فى صدرها من حقد وغل على رجاله . وإنه لمن الخير أن نلخص لك تلك المحاورة التى دارت بين الاثنين لعل فيها عبرة وعظة .

بعد أن أفضت « بيزانت » إلى الرجل بجملة الأمر ، وأطلعته على ما يساورها من شك وحيرة ، وما قابلها به سابقوه من مرءوسيه ، قال لها :

إن كل ما ذكرته ليس بالأمر الذى يزعزع إيمانك ، أو ينقص من عقيدتك ؛ فما دمت تجدين فى بحث الحق ، وتطلبين المعرفة فى إخلاص ، فلا خوف ولا ضير . خففى من سورة نفسك يا بنيتى ، واعلمى أنك فى النهاية مؤمنة . إن الذى يبحث عن الله يجده ، ويهش له ، ويطمئن إليه . وحسبك هذا عقيدة ودينا ؛ وما كان الدين يوما ليقف حائلا دون أن ينظر الإنسان ويبحث ؛ ولكن لما كانت طرقه عملية بحتة ، فقد ألزمنا القيام بالواجب نحو الله والناس أجمعين ، لهذا لا نرى مانعا من إشراكك معنا فى الأسرار ، لأنك جديرة بها ، كما هى جديرة بك ؛ ولأن الحكمة منها إنما هى الوحدة والاتحاد ، لا التفرقة والتشتيت .

وما انتهى الرجل من حديثه ، حتى قامت « بيزانت » شاكرة له هذه الروح السامية ، معتذرة عما سلف منها ، مصطحبته إلى دار أمها ، حيث قام بتلقين الأسرار ، ومن ثم انتقلت الأم إلى العالم الذى لا شر فيه ولا ألم ، ولا حزن ولا كدر .

والآن فلنضرب صفحا عن قص تاريخها بعد هذه الفترة ، لكثرة ما فيها من تشعبات لا يضر إغفالها الموضوع شيئا ، ونعود إلى عام ١٨٧٥م ، وهو العام الذى أخذ نجم « بيزانت » فى التألق فى كبد سماء الفلسفة .

وموعدنا بذلك العدد المقبل إن شاء الله .